أهم منطلقات التجديد في فكر رضوان السيد

د. محمد المنتار
رئيس مركز الدراسات القرآنية
الرابطة المحمدية للعلماء/الرباط

تقديم

يعد مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تداولتها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة في الشرق والغرب على حد سواء، وقد اتخذ هذا الفعل التداولي، خصوصا في القرون الأخيرة، شكل التنازع حول المفهوم ذاته من حيث معناه ودلالاته، ومن حيث امتداداته وتجلياته. مما انعكس على التأصيل الفكري والمنهجي لعملية التجديد بكاملها، وكان له كذلك الأثر السلبي على التنزيل العملي للتجديد.

ولا يخفى أن العملية التجديدية لها ارتباط وثيق بالعديد من الثنائيات المفاهيمية التي تتراوح بين بالتأصيل النظري للمفهوم، وبين المفاهيم المتعلقة بالممارسة التنزيلية لعملية التجديد، ويتغيى مروجوها إعادة تشكيل العقل المسلم، أو تمكين الأمة من الشهود الحضاري، عبر ممارسة النقد والمراجعة للذات لتحديد موطن الخلل، وإدراك آليات التوليد، ثم التركيب الذي يحقق الأصالة الإسلامية والمعاصرة في آن، وهنا تبرز مفاهيم من قبيل مفاهيم "الأصالة والتراث"؛ ومفهوم "التحديث"، ومفهوم "التغريب"، ومفهوم "النهضة"، ومفهوم "الإحياء"، ومفهوم "التقدم"، ومفهوم "الإصلاح"..

وتبرز العملية التجديدية اليوم لتفتح أمام الباحثين أبوابا جديدة للاشتغال والإبداع، وتمكنهم من الاستحضار العميق للتراكم المعرفي في تراثنا الإسلامي وضبط آليات فهمه، والاستفادة منه في فهم نصوص الوحي وإدراك مقاصده العليا.

وحيث إننا بصدد مؤرخ أفكار تمثل المفاهيم محورا ينبني عليه مشروعه الفكري بأسره؛ إذ ينطلق في دراساته مما يسميه "المفاهيم المفاتيح" في الفكر الإسلامي، باحثا عن تمظهراتها على هيئة أفكار وإيديولوجيات واتجاهات فكرية[1]. فإن الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية مع الدكتور رضوان السيد؛ ذلك أن المفاهيم كان لها حضورا قويا في كتاباته، وتعد عمودا أساسيا في مشروعه الفكري، خصوصا تلك المتداولة لديه من قبيل: التعارف، والتآخي، والمساواة، والتسامح، والحرية، والأمة، والسلطة.. وهي كلها مفاهيم تحتاج إلى بحث مدلولاتها وتتبع حياتها العلمية من الأرضية المفاهيمية إلى الممارسات التطبيقية. وهي مفاهيم استطاع الدكتور رضوان أن يتمثل دلالاتها من خلال رؤية قرآنية عميقة مصحوبة بالتحليل والبيان.

ثم استطاع بعد ذلك أن ينكب، بواسطة هذه الرؤية، على مختلف المجالات التي سخر قلمه وبنانه للخوض فيها، وأعني مجالات الاجتهاد والتجديد في التراث العربي والإسلامي، وإشكالية العلاقة بين الدين والسياسة، وبين الدين والثقافة والوعي، وإشكالية التقنين في الفقه الإسلامي، وحديثه عن إمكانيات تجديد الخطاب الديني العربي من خلال خطابات وتجارب المسلمين الآخرين، وحديثه عن مصادر مواريث التفكير النهضوي الإسلامي من الإصلاح إلى الإحياء، ثم قضية تجديد أصول الفقه من طريق مقاصد الشريعة، ثم حديثه عن العلوم المزورة وتخريبات ما بعد الحداثة وما قبلها، إضافة إلى نقده للدراسات الغربية المعاصرة عن القرآن من حيث أفكارها ومناهجها ونتائجها.

هذه الأهمية الفكرية لبنات أفكار الدكتور رضوان السيد تجعل من الضرورة بمكان معرفة الأسس التي تحدد معالم مشروعه الفكري، والتي تزداد الحاجة المعاصرة لإحيائها ونشرها وتعميقها.

---

1. رضوان السيد، **الجماعة والمجتمع والدولة: سلطة الأيديولوجيا في المجال العربي الإسلامي**، بيروت: دار الكتاب العربي، 1997، ص 12.

ولن أسرد كل منطلقاته في التجديد؛ فذلك يحتاج كتابا خاصا، أسأل الله سبحانه أن يقدرني عليه في مستقبل الأيام، لذلك سأركز في هذه الورقة على مناقشة مدخلين اثنين، هما:

أولا: مدخل المفاهيم القرآنية

إن أبرز ما يسترعي الاهتمام عند الدكتور رضوان السيد اعتماده الكبير على المفاهيم؛ المفاهيم المفاتيح، وأهم ملحظ في هذا الجانب أن الدكتور رضوان السيد اتخذ القرآن الكريم رافدا أساسيا الذي أفاض منه في تبيان ملامح مشروعه لإعادة بناء الإنسان والعلاقات الإنسانية، على أسس قوامها مفاهيم المساواة، والتفاهم، وغيرها من المفاهيم القرآنية.

فنجد السيد يقف أمام القرآن الكريم مقلبا النظر في رؤيته للإنسان، فالقرآن حسبه يمثل رؤية متكاملة للعالم تستند إلى إدراك عميق للطبيعة الإنسانية الاختلافية التي تجد مصداقها في قوله تعالى: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: 13). وهذا الاختلاف أورده القرآن على مراتب عدة: الاختلاف الإثني، الثقافي، التعددية، الألسن، اللهجات، والألوان، وفي أشكال التنظيم الاجتماعي: الشعوب والقبائل[1].

هذا الاختلاف، وفق قراءة الدكتور رضوان، يمكن إدارته وتحويله إلى أمر مثمر وإيجابي، وهو ما يرجعه إلى مفهوم مركزي آخر هو التعارف الذي يشكل في نظر الدكتور رضوان مفهوما مركزيا في شبكة المفاهيم الضابطة للاختلاف والمؤلفة من "التعارف، الخبرات، المسؤولية".

ويولي الدكتور رضوان أهمية قصوى لمفهوم التعارف ويراه يحمل من المعاني والدلالات ما يؤسس لعلاقات إنسانية رحبة تحول دون ادعاء الاصطفائية تحت أي مسمى أو التقوقع حول الذات تحت مسمى الهوية والخصوصية.

---

1. رضوان السيد، **الإنسان وحقوقه لدى المسلمين والغربيين والمسؤوليات المشتركة**، التسامح، العدد الثامن عشر (عمان، ربيع 2007)، ص25.

ويتحدد التعارف عند الدكتور رضوان وفق ما رسمته الآية 63 من سورة آل عمران: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا اِلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اَربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾، وهو يتأسس على وحدانية الله الخالق، والتعامل بين البشر على قدم المساواة في القيمة الإنسانية وفي الحقوق المترتبة على ذلك شكلا ومضمونا، وهذا يحيلنا إلى مفهومين آخرين مركزين ففي خطاب الدكتور رضوان، وهما مفهوم المساواة ومفهوم الشهادة.

ويعني بالمساواة أنه لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة أو لديه تفوق أخلاقي متفرد ".. فتأسيسا على الوحدانية في الخلق والعبادة تترتب رؤية لعالم بني الإنسان قائمة على الحرية والمساواة والندية[1]."

ويقصد بالشهادة دعوة وحضور فضلا عن كونها مسؤولية، وهي ليست مسؤولية أخروية وحسب عند الدكتور رضوان وإنما هي مسؤولية دنيوية بالأساس.

ومقصد العملية التعارفية القرآنية في نظر الدكتور رضوان هو تحقيق الخيرات مصداقا لقوله تعالى: ﴿**ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات**﴾ (البقرة: 147)؛ والخير مفهوم يتسم بالعموم والشمول تتطابق حدوده لدى رضوان مع مفهوم المعروف، وحسبما يلحظ فإن القرآن يدعو المسلمين للتنافس مع غيرهم في استباق الخيرات دونما تحديد لتلك الخيرات باعتبارها معروفة ومشتركة بين بني البشر ولا ينفرد بها المسلمون معرفة وتحديدا[2].

وإلى جوار المنظومة التعارفية يلمح الدكتور رضوان إلى طريقة قرآنية ثانية تشكل مستوى آخر من مستويات تنظيم الاختلاف الأساسي تلك هي طريقة التآلف بين المومنين في إعلان عن تجاوز الانحراف إلى شيء آخر جديد هو التآخي ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا اِلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله**﴾ (ءال عمران: 63).

---

1. **الدين، المجتمع والدولة في العلاقات والمصائر والمرجعيات**، التسامح ع.17.
2. المرجع نفسه.

ولأهميتها وأهمية الإبداع الذي صاحب عرض دعائمها، صاغ الدكتور رضوان السيد رؤيته للمفاهيم سالفة الذكر، في شكل محاور كبرى تشكل حسبه أسس رؤية العالم من خلال القرآن الكريم، أبدع فيها وحرر أمور من الأهمية بمكان.

1. أسس رؤية العالم من خلال القرآن الكريم

يؤكد الدكتور رضوان السيد أن القرآن الكريم يمتلك (رؤيةً للعالم) تقوم على أربعة أُسُس: الأول؛ يتعلق بالإدراك. والثاني؛ يتعلق بالطبيعة. والثالث؛ يتعلق بالمضامين. والرابع؛ يتعلق بالإستراتيجية[1]:

الأساس الأول المتعلقُ بـالإدراك للعالم الإنساني أو رؤيته قولُهُ تعالى: ﴿**يأيها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتَعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: 13). فعالم مكوَّنٌ من شعوبٍ وقبائل؛ أي أنّ التنظيم الاجتماعي مختلف. والقرآن يذكر أشكال الاختلاف في آياتٍ أُخرى: اختلاف الألسنة (اللغات) والألوان (الروم: 22)، والصيرورة من الوحدة للنزاع (يونس: 19).

على أنّ هذا الاختلاف الطبيعي، والخلاف اللاحق ليس بالضرورة أن يؤدّي إلى شرور؛ لأنّ الخالقَ واحد: ﴿**خلقكم من نفس واحدة**﴾ (النساء: 1)؛ ولأنّ الوحدة كانتً أصلاً (يونس: 19)؛ ولأنَّ دعوات الحقّ المُوحاة إنما جاءت لتقضي بين الناس فيما تنازعوا فيه (النحل: 64). على أنّ المنهج الثابت والدائم لإدارة الاختلاف، وتحويله إلى أمر إيجابي إنما هو التعارُف الوارد في آية سورة الحُجرات. والتعارُف مفهومٌ عامٌّ وشاملٌ ويعني أشياء كثيرةً تدخُلُ كلُّها فيما يُعرف اليومَ بالحوار؛ وإن تكن أبلغ وأشملَ منه. فالتعارُف يعني الاعتراف المتبادَل بين الأطراف بالمصالح المختلفة والاهتمامات المختلفة.

والتعارُفُ يعني، أيضاً، التعرُّف على المشتركات التي يمكن التلاقي حولها استناداً إلى طبيعة الإنسان الواحدة، والضرورات الكامنة في طبع الخليقة، والمصالح الموجودة في الاجتماع الإنساني، بمعنى أنّ الفرد يحتاج إلى الجماعة، والجماعة تتكون من أفراد،

1. المرجع نفسه.

والجماعات تحتاجُ إلى بعضها البعض. والتعارُف يعني (معرفة) الآخر، والمعرفةُ تُولّد أُنساً، وتولّد التوادّ والتلاؤم والتناسُب. ذلك أنّ الجهل أو عدم المعرفة هو الداعيةُ الرئيس للافتراق والتخاصُم. وفي نهاية آية سورة الحجرات يأتي الخطابُ الإشاري الهامّ ﴿**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. فالحكَم عند الله (وفي المصلحة البشرية العامة): التقوى، وهذا المصطلح هو بدوره هائل الاتّساع ومتعدد المعاني القريبة والبعيدة، وسوف نعودُ إليه فيما بعد. لكنّ ما نودُّ تأكيده هنا أنها رؤيةٌ شاملةٌ للعالم الإنساني، ومنهجٌ لمعالجة قضايا ومُشكلات الإنسان بالإنسان.

أما **الأساسُ الثاني** لرؤية العالم في القرآن فيتعلّق **دور الوحي والنبوة** في الدعوة لهذه الرؤية، ولذاك المنهج: ﴿**قل يأيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً**﴾ (الأعراف: 158). فالرسالة شاملةٌ، ومن طبيعتها الشمول استناداً لوحدانية المُرسل، ووحدة الطبيعة الإنسانية. والجزء الثاني من طبيعة الرسالة أنها رحمة: ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين**﴾ (الأنبياء: 106). وهكذا فإنّ الأمر قسمان: الشمول، والرحمة. الشمولُ المقصودُ به أنه تكليفٌ لا يفرّق بين فردٍ وفرد أو أمةٍ وأُمّة. والرحمةُ المقصودُ بها بيان طبيعة ذلك الشمول، إنه (الرحمةُ المُهداة) كما سمَّى رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، شخصه ودعوته في أثرٍ مرفوع؛ ولأنّ الأمرين إلهيان، فإنهما لا يدخلان في التبادُلية الإنسانية، أي شيء مقابل شيء، وإنما تأتي العبادةُ: ﴿**وما خلقْتُ الجنَّ والإنس إلاّ ليعبدون**﴾ (الذاريات: 56)؛ لأنه، سبحانه، الحقيقُ بذلك، والإنسان هو الخليقُ بذلك. فالكافر والعاصي تتناولُهما الرسالةُ والدعوةُ، وتتناوُلُهما الرحمةُ أيضاً.

الأساسُ الثالث في القرآن الكريم لرؤية العالم والإنسان هو **الأساسُ المضموني**: ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا الِى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اَربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ (ءال عمران: 63).

يقومُ مضمون التعارُف، إذن، على مسألتين: وحدانية الله، والتعامُل بين البشر على قدم المُساواة في القيمة الإنسانية، وفي الحقوق المترتبة على ذلك شكلاً وموضوعاً.

والمساواة هنا تعني أيضاً أنه لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة أو لديه تفوق أخلاقي متفرد. ومع أنّ الخطاب شامل والمضمون شامل فقد خصَّ القرآن الكريمُ به (أهل الكتاب) باعتبارهم الأقرب إلى مفاهيم دعوة الإسلام. فتأسيساً على الوحدانية في الخلْق والعبادة، تترتب رؤيةٌ لعالم بني الإنسان قائمة على المساواة والحرية والنِدّيّة. وهكذا لا ميزة للموحِّدين على غيرهم؛ بل إنّ ذكرهم إنما سببُهُ إمكانُ استجابتهم أسرعَ من غيرهم لنهج المساواة والحرية. أما ميزتُهُم الوحيدة، إذا صحَّ التعبير، فهي تحوُّلُهم إذا أحسنوا القيام بمسؤولياتهم في عالم بني الإنسان إلى (شهود): ﴿**يأيها النبيء إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً**﴾ (الأحزاب: 45)؛ ﴿**وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسول عليكم شهيداً**﴾ (البقرة: 142).

والشهادة دعوةٌ وحضور، لكنها أيضاً مسؤولية: ﴿**وإنه لَذكرٌ لكَ ولقومك، وسوف تُسئلون**﴾ (الزخرف: 43). والمسؤولية ليست أُخرويةً وحسْب؛ بل هي بالدرجة الأولى مسؤوليةٌ حاضرةٌ أو دنيوية. إذ هم (المسلمون وأهل الكتاب) مسؤولون عن نهج التعارُف ومدى تقدمه، ومسؤولون عن تحريفه إنْ كان، وعن عدم نجاحه بشكلٍ عام: ﴿**وإن تتولّوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ (محمد: 39).

الأساسُ الرابعُ هو **القاعدةُ المقاصدية** في قوله تعالى: ﴿**ولكلٍ وجهةٌ هو مُولّيها فاستبقوا الخيرات**﴾ (البقرة: 148)، وقوله تعالى: ﴿**ولكنْ ليبلوكم في ما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات**﴾ (المائدة: 50). المقصودُ من الدعوة والتعارُف والمسؤولية: إنجازُ الخيرات. فالاختلاف سوف يستمرّ، لكنه بالنهج الإلهي التعارُفي يتحول إلى تنافُس في تحقيق خير بني الإنسان. وهذا يُطلُّ بنا من جديد على آية التعارُف التي تُختتمُ بذكر التقوى، وأنّ الأكرم عند الله، سبحانه، هو الأتقى. فالتقوى تعني خير بني الإنسان، والخير مفهومٌ عامٌّ ومشتركٌ، إنه هو نفسُه المعروف، المتعارَف عليه (ضدّ المنكر)، والشاذ وغير المألوف. وهكذا يظهر مرةً أُخرى المنهج الشمولي القائم على

وحدة بني البشر، والوحدة الكبرى والعامة للمفاهيم الأساسية؛ وبخاصةٍ لدى أهل الكتب السماوية[1].

2. التعدد والتسامح والاعتراف

ولعل أبرز ما تميز به الدكتور رضوان هو قدرته على الانتقال والإبحار المقارن بين المفاهيم القرآنية، وبين المفاهيم المأخوذة من الفضاء الحضاري الغربي، وهو ما أتقن إجراءاته الفهمية والتطبيقية حين مقاربته لمفهوم التسامح في الرؤية الإسلامية في مقابل الرؤية المسيحية والرؤية الإنسانوية التي ظهرت في أوربا خلال القرن 17 و18 الميلاديين. حيث نجده يبحث بحث خريث عن سياقات المفهوم في العالم العربي في تتبع استقرائي ممنهج لتاريخ تداول المفهوم، ليخلص في الأخير إلى أن منهج التعارف القرآني هو الأقرب من التسامح إلى طبيعة الإسلام[2].

وحسب الدكتور رضوان السيد فإن رؤى "التسامح" أو الاعتراف بالاختلاف تكادُ تنحصر في ثلاث:

أ. **الرؤية المسيحية:** وهي تقومُ على "المحبة"، وهي التي دفعت، في هذا المنزع، لظهور العقائد المسيحية الكبرى في التجسد والصلب والفداء والقيامة والثالوث. بيد أنّ حصرية سبيل النجاة بربطها بقانون الإيمان المسيحي من جهة، وربطها بالكنيسة والدولة من جهةٍ ثانية وبخاصةٍ بعد القرن الرابع الميلادي؛ أنتجت اعتقاداتٍ وممارساتٍ ضيّقت من مفهوم المحبة ومجالاته، وقصرتْهُ على المؤمنين بالمسيح وكنيسته. ولهذا ما أمكن استيعابُ الاختلافات حتى داخل المسيحية نفسها، مما أنتج شقاقاتٍ عدَّدت الكنائس منذ القرون الأُولى لظهورها، وكان آخِرها وأكبرها الانشقاق الكاثوليكي/ البروتستانتي، بعد الانشقاق الكاثوليكي/ الأرثوذكسي. وما استطاع المسيحيون حلَّ المُشكل من خلال المحبة، كما لم يستطيعوا الجمع بين مبدأ حصرية الحقيقة والخلاص، ووحدة الكنيسة الجامعة. وهذا هو سببُ الحروب الدينية الكثيرة منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وحتى القرن التاسع عشر.

---

1. المرجع نفسه.
2. **التعدد والتسامح والاعتراف**، التسامح ع 12.

ب. **الرؤية الإنسانوية**: وقد ظهرت لدى الأوروبيين في القرنين السابع والثامن عشر. وهي تبحثُ عن السلام الاجتماعي من خلال الإقصاء القسْري للدّين أو تحييده؛ إمّا استناداً إلى التجربة المرة وحروب الإبادة المؤْسية بين المختلفين دينياً، أو استناداً إلى مبدأ اللاأدرية الذي يتجاوزُ الأديان والعقاديات، ويعتبرها سيّين في الاقتراب من الحقيقة أو الابتعاد عنها. وبعد تطوراتٍ كثيرةٍ ظهرت المقولةُ التي تذهبُ إلى أنّ لكل إنسانٍ حقاً طبيعياً (ناجماً عن الطبيعة الأصلية) في الحريات الأساسية في الاختيار الديني والاجتماعي والسياسي. وهذا التيار بالذات هو الذي استلهمه بعض النهضويين العرب الذين اختاروا له اسم التساهُل فالتسامُح.

وبسبب الموقف (السلبي) من الدّين، وقف الإصلاحيون ذوو الأصول الإسلامية في مطلع القرن العشرين ضدَّ التسامُح بمعنى اللاأدرية أو فصل الدّين عن الدولة، واحتجوّا لهذا الرفض بالتجربة الإسلامية الوسيطة التي أنتجت تجربةً مدنيةً في الحكم، وانسجاماً بين الدّين والدولة، وحريةً نسْبيةً في الاعتقاد، واعترافاً بالآخر الديني والتعايش معه. بيد أنّ أعقابَ هؤلاء، بعد الحرب الثانية، عادوا للقول بالتسامُح، أي تقبل الاختلاف، استناداً للقرآن، وللتجربة التاريخية الإسلامية نفسها؛ فبدا التبايُنُ في المواقف ناجماً عن الخلط والغموض في الاصطلاح، وليس أكثر[1].

ج. **الرؤية القرآنية**: الاختلاف في هذه الرؤية حالةٌ طبيعيةٌ منذ خَلَقَ الله الخَلْق؛ وهو تعبيرٌ عن قدرة الله، عز وجلّ، ومشيئته: ﴿**ومن ـ اياته خَلْقُ السموات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم**﴾ (الروم: 21). فالأمة الواحدةُ المعنيُّ بها البشريةُ الواحدةُ أو الإنسانيةُ الواحدة: ﴿**وما كان الناسُ إلاّ أمةً واحدةً فاختلفوا..**﴾ (يونس: 19)؛ وهكذا فالواحدةُ هنا تعني التساوي في الخَلْق والقيمة رغم الاختلاف في الألسنة والألوان والعقول والعقائد: ﴿**خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء..**﴾ (النساء: 1): ﴿**ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمةً واحدةً، ولا يزالون مختلفين إلاّ مَنْ رحم ربُّك، ولذلك خلقهم**﴾ (هود: 118).

1. المرجع نفسه، ص11-20.

وهناك طريقتان لتنظيم الاختلاف بين الناس وضبطه؛ طريقة أو منهج التعارُف؛ أي الاعتراف، اعتراف البشر أفراداً وفئاتٍ باختلاف بعضهم عن بعض، وضرورة التوافُق على العيش معاً رغم الاختلاف أو بسببه: ﴿**يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتَعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: 13). والطريقة الثانية: التآلُفُ بين المؤمنين بالإله الواحد والدين الواحد، بما يتجاوزُ الاعتراف إلى التآخي: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا الِى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اَربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ (ءال عمران: 63). بيد أنّ الإعراض عن التعارُف وعن التآخي لا يعني حتمية التنازُع؛ بل هناك حدودٌ دُنيا يمكن الوقوفُ عندها: ﴿ **لا ينهاكُمُ الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبروهم وتُقسطوا إليهم، إنّ الله يحبُّ المقسطين**﴾ (الممتحنة: 8). وإذا كانت تلك حدوداً في التعامُل بين جماعة المسلمين وغيرهم؛ فهناك حدودٌ في الموقف أساسُها الحريةُ في ممارسة الاختلاف حتّى في المجال الديني: ﴿**لا إكْراهَ في الدين، قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغي**﴾ (البقرة: 255)، وقوله تعال: ﴿**اَفأنت تُكرهُ الناسَ حتى يكونوا مومنين**﴾ (يونس: 99)؛ إذ إنه، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه، ما أُرسلَ إلا رحمةً للعالمين: ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين**﴾ (الاَنبياء: 107)[1].

ثانيا: مقاصد الشريعة وممارسات الاجتهاد والتجديد

أضحت المقاصد إطارا منهجيا ضابطا للفهوم، ومسلكا علميا مؤطرا للتنزيلات ليس في العلوم الشرعية، فحسب، بل في باقي الفنون الأخرى؛ من علوم اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، وعلوم تجريبية، بشتى فروعها؛ من حيث كونها منهجية معرفية لشتى فروع المعرفة.

وتشكل المقاصد، بمختلف تقسيماتها، في اطرادها، وثباتها، وشموليتها، وببعديها المآلي والاستشرافي، طريقا ونهجا لبلوغ الغايات والأهداف في مجال العلم والمعرفة.. بشكل يبوئ المقاصد من أن تكون قاعدة لبناء العلوم والمعارف ومرشدا للاجتهاد،

1. المرجع نفسه، ص11–20.

وبهذا نعطيها انطلاقة جديدة لأداء دورها باعتبارها أسا للاجتهاد، ومدخلا من مداخل التجديد.

وقد استثمر الدكتور رضوان السيد المدخل المقاصدي بمختلف تراكماته المعرفية والمنهجية في بناء التصورات، وتحليل العديد من الإشكالات المعرفية، وكثير من مسائل وهموم الاجتهاد والتجديد الفقهي والديني في العصر الراهن، من ذلك:

1 . المقاصد والسياسة الشرعية

في معرض تناوله لإشكالية حقوق الإنسان يقدم الدكتور رضوان عرضا تحليليا نقديا مقارنا لسيرة المفهوم والمرتكزات التي يتأسس عليها ونقطة البداية عنده التراث المقاصدي وتقسيمات الأصوليين للضروريات الواجب حفظها: (الدين، النفس، العقل، العرض، المال). وهي المقولة التي تطورت تباعا حتى أصبحت منهجا نظريا متكاملا.

وفي هذا الصدد يقول: "... فقد ذهب إمام الحرمين الجويني (478هـ) إلى أنّ الشريعة إنما أُنزلت من أجل قوى خمس مصالح ضروريةٍ لبني البشر هي: النفس (حق الحياة)، والعقل، والدين، والنسْل، والمِلْك[1]. وهذه الفقرة الموجزةُ تكررت لدى الغزالي (505هـ) تلميذ الجويني، وجاءت لها مشابهاتٌ لدى عز الدين ابن عبد السلام (665هـ)، وابن تيمية (728هـ)، وابن قيّم الجوزية (751هـ)[2]. إلى أن بلغت ذروة نُضجها لدى الشاطبي (790هـ)، الذي عقد عليها كتاباً ضخماً تحت اسم "الموافقات في أصول الشريعة". وقد رأى الشاطبي أنّ هذه الضروريات أو المقاصد تتدرج كلٌّ واحدةٍ منها من حالات أو أصول الضرورة إلى الحاجيات والتحسينيات[3].

---

1. الجويني، **البرهان**، 2/111-112، و**التلخيص** 2/254. وقارن بعبد المجيد الصغير: **الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام**، دار المنتخب العربي (1994م)، ص347 وما بعدها.
2. الغزالي، **المستصفى**، 2/86، وابن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** 1/311-313، وابن تيمية: **الفتاوى**، 13/218-222، وابن قيم الجوزية، **الطرق الحكمية**، ص23-27 (نقلاً عن ابن عقيل الحنبلي).
3. **الموافقات** 1/11-12. وقارن بأحمد الريسوني، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، بيروت (1992م)، ص209-215. وانظر: عبد المجيد تركي، **الشاطبي والاجتهاد والتشريعي المعاصر**، بمجلة الاجتهاد، ع8، (1990م)، ص237-255

وهذا يعني أنّ الحقوق الإنسانية الأصلية تتشقّقُ إلى فروعٍ أو فرعياتٍ كثيرة في شبكةٍ تتوسَّع بقدر توسُّع إنسانية الإنسان. ولذا كان لابد منً الوصول إلى النتيجة المنطقية وهي اعتبارُ هذه الحقوق أو المقاصد أمراً إنسانياً عاماً، وليس خاصاً بالشريعة الإسلامية إدراكاً واعتباراً[1]."

وهو الأمر الذي يعني في نظر الدكتور رضوان أن الحقوق الإنسانية الأصلية تتفرع في شبكة تتوسع بقدر توسع إنسانية الإنسان، وأنها؛ (أي الحقوق والمقاصد) لا تخص الشريعة الإسلامية وحدها بل هي أمر إنساني عام، وهو ما يدعمه قول الإمام الشاطبي "وقد قيل إنها مُراعاةٌ في كلّ ملّة[2]."

وهو هنا يشير إلى أن علاقة المقاصد بالسياسة الشرعية أو ما عبر عنه هو علاقة السياسة الشرعية بفقه المقاصد، راجع إلى أن "الفقه السياسي" باعتباره "فقه مصالح" باب واسع يمكن مده إلى المجال المدني العام، وخاصة أن هناك من قال بأساس نصي له، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

2. التجديد في أصول الفقه من طريق مقاصد الشريعة

شكل البحث في آفاق إمكانات علم الأصول التجديدية، انشغالا محوريا في الجهود النهضوية لأمة الختم، منذ بوادر التأسيس الأولى مع الشافعي (توفي 204هـ) مرورا بمن جاء من بعده ممن الأعلام أمثال إمام الحرمين الجويني الإمام الجويني (توفي 478هـ)، والإمام الغزالي (توفي 505هـ)، والإمام الرازي (توفي 606هـ)، والإمام الآمدي (توفي 631هـ)، والعز بن عبد السلام (توفي 660هـ)، والإمام القرافي (توفي 684هـ)، وابن تيمية (728هـ)، وتلميذه ابن القيم (751هـ)، واللوذعي أبو إسحاق الشاطبي المالكي (توفي 790هـ).. وصولا إلى الباحثين المعاصرين والمحدثين في مختلف القضايا الأصولية والمقاصدية.

---

1. **الإنسان وحقوقه لدى المسلمين والغربيين والمسؤوليات المشتركة**، التسامح، العدد الثامن عشر (عمان، ربيع 2007)، ص26.
2. أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات**، 1/ 16-17.

ومن المهم التأكيد هنا على أن تفسير إشكالية التجديد، وتقديم مفهوم له، كان مرتبطاً دوماً بطبيعة التحديات التاريخية التي كانت تواجه المسلمين كأمة ووجود. ولا يخفى أن كل عصر ينفرد بخصوصياته، وسياقاته، وتحدياته، وأسئلته...

وهذا ما جعل هذا المصطلح يتخذ في الفكر الإسلامي المعاصر تفسيرات مختلفة. حيث أصبح من أكثر المصطلحات إثارةً وشيوعاً في الفكر الإسلامي المعاصر؛ وأعني بالمعاصر هنا كل التيارات الراهنة دون استثناء، وفي الوقت نفسه يثير حساسية بالغة في بعض الأوساط نتيجة لسوء استخدامه والتلاعب بالدين تحت عباءته.

ويرى الدكتور رضوان السيد أن هناك طريقتين ممكنتين لتجديد أصول الفقه: اللجوء إلى مقاصد الشريعة، وتجديد مناهج وآليات القراءة، أي قراءة النصوص الدينية.

ويقرر السيد حقيقة مفادها أن الدراسات الكثيرة في "مقاصد الشريعة" خلال العقود المتأخرة ما جلبت جديداً كثيراً في مجالها، بينما تندر الدراسات في الأصول، وقليلون هم الذين يُقبلون عليها.

وقد أشاد الاصطلاحيون طويلاً ولا يزالون بالآفاق التي تفتحها المصالح الضرورية أو مقاصد الشريعة، لكنهم ما اجترحوا طريقة تتمكن بها تلك المقاصد من إنتاج الأحكام من خلال "فقه المصالح" أو "المقاصد". كما لم يمضوا بعيداً في الاعتراف بها باعتبارها "فلسفة" للتشريع، خوفاً من ظلم النصوص أو تجاوزها. أما علم أصول الفقه فهو علم دقيق ومنضبط، وفيه إنتاج كلاسيكي جاد. لكن المنطق الذي قام عليه (المنطق الأرسطي) تهاوى منذ قرن ونصف القرن. فلا بد من قواعد لسانية جديدة، ولا بد من قواعد أصولية وفقهية جديدة[1]."

ولا شك أن السياق الزمني والكوني يتطلب فتحا مستأنفا لهذا الورش المعرفي، مما يستدعي تحيين وتجديد كثير من معطيات هذا العلم، ليستند إليها الاجتهاد ويتوسل بها من أجل ضبط حركة المجتمعات بحقائق الإسلام، وقيمه العليا..

---

1. رضوان السيد، **التجديد في أصول الفقه من طريق مقاصد الشريعة**، م، س.